الملفُّ الأول

سِلْم السَّكن والمودة والرحمة

لا تخلو الحياة البشريَّة وخاصَّة الأسرية من شدٍّ وجذب ونزاع وخصام، وحوار ربَّما يؤدي في كثير من الأحيان إلىٰ صدام، ومن ثم ونتيجة الانفعال وعدم التحكُّم في المشاعر والأحاسيس تصدر قرارات عكسية تحَوِّل السِّلم إلىٰ عداء، واللين إلىٰ عنف واعتداء، والحكمة إلىٰ سفه وازدراء، فيحدث التصادم الذي يقوِّض البنيان ويذهب بالسَّعادة إلىٰ عالم الفناء.

ويذهب الواقع بعيدًا في طرحه أسباب المشكلات وقضايا الخلافات، ويزيد الأمر تعقيدًا في البحث عنها في قوانين البشر بعيدًا عن منهج خالق الأرض والسماوات، ثم يقرر في النهاية بعض الحقائق في كلمات وعبارات ربما تلقىٰ صدىٰ واستجابة في بعض الأوقات ولكنها لن تثمر أبدية السعادة؛ لأن نظرته محدودة الفكر بشريَّة الصُّنع.

وماذا لو قدَّمنا المنهج القرآني وفعَّلنا دستوره والتزمنا بآدابه وتعاليمه، والذي نصَّ علىٰ السَّكن والمودة والرحمة عنوانًا لحياة زوجية آمنة وسعيدة؟.

قال الله تعالىٰ: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الروم: 21].

إن إدراك حقيقة هذه المفردات وتفعيلها علىٰ أرض الواقع هو سرُّ بقاء الحياة الزوجية في سلميَّة وهدوء تام، فهي تصف الدَّواء لمن أراده، فـ «﴿لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا﴾ أي لتميلوا إليهن وتألفوهن، فالمرأة سكن للرَّجل يجد بجوارها الرَّاحة والأنس والاستقرار ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ أي وجعل بين الزوج والزوجة المحبَّة والشفقة.

قال ابن عباس[1]: (المودة): حب الرجل امرأته، و(الرَّحمة): شفقته عليها أن يصيبها بسوء، ولولا هذه المودة والرَّحمة ما عطف رجل علىٰ امرأة»[2].

فإذا خيَّمت هذه المفردات بدلالتها علىٰ الأسرة المسلمة أيقظت في نفوسهم أسمىٰ معاني التآلف والتوادِّ والتحابِّ، ولذلك تأمل التعبير القرآني: ﴿لِّتَسۡكُنُوٓاْ إِلَيۡهَا﴾ «ولم يقل ليسكن معها، مما يؤكد معنىٰ الاستقرار في السلوك والهدوء في الشعور، ويحقق الرَّاحة والطمأنينة بأسمىٰ معانيها، فكل من الزوجين يجد في صاحبه الهدوء عند القلق، والبشاشة عند الضيق. إن أساس العلاقة الزوجية: الصُّحبة والاقتران القائمان علىٰ الودِّ والأنس والتآلف. إن هذه العلاقة عميقة الجذور بعيدة الآماد، إنها أشبه ما تكون صلة للمرء بنفسه، بيَّنها كتاب ربِّنا بقوله: ﴿هُنَّ لِبَاسٞ لَّكُمۡ وَأَنتُمۡ لِبَاسٞ لَّهُنَّۗ﴾ [البقرة: 187]، فضلاً عما تهيئه هذه العلاقة من تربية البنين والبنات وكفالة النشء التي لا تكون إلا في ظل أمومة حانية وأُبُوَّة كادحة، وأي بيئة أزكىٰ من هذا الجو الأسري الكريم؟»[3].

وحدِّث نفسك قبل أن تحدِّث غيرك وأسمع مَنْ به صمم عن هذا الرِّباط المقدَّس الذي يجمع بين المرأة والرجل بهذه المفاهيم والدَّلالات التي لم يسبق أن سَنَّها تشريع، أو وضعها عالم في أي عصر أو جيل «فهذه آية من آيات الفطرة

---

(1) عبد الله بن العباس بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف القرشي الهاشمي، ابن عم رسول الله ﷺ، ولد وبنو هاشم بالشِّعب قبل الهجرة بثلاث، وقيل بخمس، والأول أثبت.
وفي وفاته أقوال سنة خمس وستين وقيل سبع وقيل ثمان وهو الصحيح في قول الجمهور. الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر العسقلاني. تحقيق. علي محمد البجاوي 1/ 141، 151 - دار الجيل - بيروت - الطبعة الأولىٰ 1412هـ.

(2) التفسير الواضح الميسر. محمد علي الصابوني ص1002، 1003 - الأفق للطباعة والنشر - بيروت - لبنان - الطبعة الأولىٰ 1422هـ-2001م.
وينظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير 3/ 564 - مؤسسة الريان - الطبعة الثانية 1417هـ-1996م، وإرشاد العقل السليم إلىٰ مزايا الكتاب الكريم (تفسير أبي السعود) 4/ 274 - دار الفكر.

(3) البيت السعيد وخلاف الزوجين د. صالح بن عبدالله بن حميد ص5، 6 - وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوىٰ والإرشاد - المملكة العربية السعودية - الطبعة الثانية 1423هـ.

الإلهية هي أقوىٰ ما تعتمد عليه المرأة في ترك أبويها وإخوتها وسائر أهلها، والرِّضا بالاتصال برجل غريب عنها تساهمه السَّراء والضَّراء، فمن آيات الله تعالىٰ في هذا الإنسان أن تقبل المرأة بالانفصال من أهلها ذوي الغيرة عليها لأجل الاتصال بالغريب تكون زوجًا له ويكون زوجًا لها، تسكن إليه ويسكن إليها، ويكون بينهما من المودة والرَّحمة أقوىٰ من كل ما يكون بين ذوي القربىٰ فكأنَّه يقول: إن المرأة لا تقدم علىٰ الزوجية، وترضىٰ بأن تترك جميع أنصارها وأحبائها لأجل زوجها إلا وهي واثقة بأن تكون صلتها به أقوىٰ من كل صلة، وعيشتها معه أهنأ من كل عيشة، وهذا ميثاق فطري من أغلظ المواثيق وأشدها إحكامًا، وإنما يفقه هذا المعنىٰ الإنسان الذي يحس إحساس الإنسان»[1].

فهذه المشاعر النبيلة والأحاسيس المرهفة هي الجامعة لكل خصال الخير، المانعة من تحكُّم أسباب النِّزاع والشَّرِّ لن تجد أقوىٰ منها في عالم دفع الخلاف «إن المودة وحدها آصرة عظيمة وهي آصرة الصداقة والأخوة وتفاريعهما، والرَّحمة وحدها آصرة منها الأبوَّة والبنوَّة، فما ظنكم بآصرة جمعت الأمرين وكانت بجعل الله تعالىٰ، وما هو بجعل الله فهو في أقصىٰ درجات الإتقان»[2].

فبتلك الروابط الإيمانية التي تحمل رمز البِّرِّ والإحسان وسمات الأمن والأمان تسعد القلوب بدفء الحياة الأسريَّة، وتلك حكمة الله في خلقه، هذه الحكمة التي «أودعت نفوسهم هذه العواطف والمشاعر، وجعلت في تلك الصِّلة سكنًا للنفس والعصب، وراحة للجسم والقلب، واستقرارًا للحياة والمعاش، وأنسًا للأرواح والضمائر، واطمئنانًا للرَّجل والمرأة علىٰ السواء ... فيدركون حكمة الخالق في خلق كل من الجنسين علىٰ نحو يجعله موافقًا للآخر، ملبِّيًا لحاجته الفطرية: نفسية وعقلية وجسدية. بحيث يجد عنده الرَّاحة والطمأنينة والاستقرار، ويجدان في

(1) الأعمال الكاملة. محمد عبده. تحقيق وتقديم د. محمد عمارة 5/ 187 - دار الشروق - الطبعة الأولىٰ 1414هـ-1993م.

(2) التحرير والتنوير. محمد الطاهر بن عاشور 1/ 644 - دار سحنون - تونس 1997م.

اجتماعهما السَّكن والاكتفاء، والمودة والرَّحمة؛ لأن تركيبهما النَّفسي والعصبي والعضوي ملحوظ فيه تلبية رغائب كل منهما في الآخر، وائتلافهما وامتزاجهما في النهاية لإنشاء حياة جديدة تتمثَّل في جيل جديد»[1].

ومعرفة عالم الرِّجال والنِّساء والفهم الدقيق لطبيعة كل منهما هي أفضل وسائل إدراك هذه الحقائق، أمَّا محاولة العبث بتصوير كل منهما بصورة الآخر وإعطائه دوره في الحياة فغايته زرع المشكلات وحصد ألوان وأشكال من النِّزاع والشقاق والذي ينتج عنه في النهاية الطلاق.

فالحقيقة تقتضي أن نعلم «أن هناك فروقًا بين الرَّجل والمرأة، وأن فهم طبيعة هذه الفروق بين الجنسين من شأنه أن يغيِّر حياتهم ويزيد من قدرتهم علىٰ التعايش الزَّوجي، ويجنِّبهم الكثير من المشكلات والصعوبات، والتي يمكن أن يؤدي عدم فهمها إلىٰ تفكيك هذه العلاقة الزوجية، وهدم الحياة الطَّيبة، وأعني بذلك الانسجام، وهذا لا يمكن أن يأتي في عشية وضحاها، بل حتىٰ يعرف كل منا كيف المدخل إلىٰ مفتاح قلب الآخر بمعرفة طبيعته، فالرَّجل عالم والمرأة عالم، فهما عالمان متغايران ولكن في نفس الوقت شقائق لبعض، ولذلك من الخطأ بمكان أن تأخذ المرأة وظيفة الرجل، والرجل وظيفة المرأة، فلكل واحد منهما طبيعة وقدرة معينة تختلف عن الآخر، وإذا تجاهلنا هذا الشيء إعجابًا وتقليدًا لغيرنا، فقل علىٰ الحياة الأسرية السلام»[2].

ولذلك فإن تحقيق السلميَّة الأسريَّة له أدواته وآلياته التي تدعو إلىٰ التعامل برفق ولين خاصة في حالة الغضب والانفعال، وذلك حتىٰ لا تتحول الحياة الزَّوجية إلىٰ شقاق ونزاع وخصام.

---

(1) في ظلال القرآن. سيد قطب 5/ 2763 - دار الشروق العلمية - الطبعة الشرعية السابعة عشرة 1410هـ-1990م.

(2) زوايا أسرية د. غازي عبد العزيز الشمري ص9، 10 - وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية - إدارة الثقافة الإسلامية - قطاع الشئون الثقافية - دولة الكويت - الطبعة الأولىٰ 1433هـ-2012م.

فعندما يمدح الرجل بقوته البشريَّة تمدح المرأة أيضًا بضعفها البشري، فالضَّعف البشري ليس عيبًا فيها وإنما هو في أصل الخِلْقة ليحدث التكامل والتراحم بكافَّة أشكاله ومختلف صوره «فبهذا التعاطف تقوم الأسرة السعيدة، وتدوم الحياة الأسريَّة المستقرَّة التي في ظلها تزدهر المعاني الكريمة، وفي كنفها تنمو المشاعر السَّامية، إذ يجد الرَّجل في زوجته الرفيق الذي يسكن إليه، والنَّفس التي يطمئن إلىٰ إخلاصها، وتشاطره سراء الحياة وضراءها، وتفيض عليه من المودة ما يهون عليه متاعب الحياة، وتخفِّف عنه هموم الدُّنيا. كما تحبُّ المرأة في زوجها السَّند الذي تركن إليه فيصون لها الكرامة، ويوفِّر لها الحياة المطمئنة، والسَّعادة المنشودة. وإن المتأمِّل في سيرة الدَّعوة الإسلامية ليستطيع أن يلمس بوضوح بعض ما يمكن للأسرة القويَّة المؤسسة علىٰ القيم الفاضلة أن تحقَّقه لدعوة الحقِّ من معاونة، وأن تبعثه في نفس الدَّاعية من طمأنينة في الشدائد وصبر علىٰ المكاره، وثقة في النَّصر»[1].

فإذا ما سكن الرجل إلىٰ المرأة وسكنت إليه وجمعت بينهما المودة والرَّحمة كلما حدث بينهما التجانس والتآلف والتقيا في طريق واحد ذات عنوان واحد، وإذا ما غابت عنهما هذه الدَّلالات حدث بينهما التباعد والتخالف، وكما نعلم «فإن المجانسة من دواعي التضامِّ والتعارف كما أن المخالفة من أسباب التفرُّق والتنافر»[2].

(1) أهداف الأسرة في الإسلام ص72، 73.

(2) تفسير أبي السعود 4/ 274.

ينظر: روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني للألوسي. حققه د. السيد محمد السيد، سيد إبراهيم عمران 21/ 42 - دار الحديث - القاهرة - 1426هـ-2005م.